بيرون

يقول الاستاذ العقاد فى صدر هذا الكتاب:

(كان لورد بيرون يقول «نهضت من فراشى ذات صباح فألفيتنى مشهورا» فلم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فى برجه الأسنى، فقد جاوز جانبى الأفق وأصعد فى سمت السماء).

ألف الكتاب الكاتب الفرنسى «اندريه موروا» Andre Mauois وترجمة بتصرف الاستاذ أحمد الصاوى محمد

ولد بيرون بكعب مشلول ينهار تحته إذا مشى وتخونه قدمه. بل بلغ به الاستنكار، والشعور بالخجل، إلى حد لم يوجه بسببه قط سؤالا. وحدث يوما أن قالت امرأة فى الطريق لمربيته ماى جراى: «هذا الولد الصغير: بيرون، ما أجمله! لكن ياخسارة ما أصاب ساقيه». فضربها بيرون الطفل بسوطه الصغير وصاح بها أف لك لا تذكرى هذا وكانوا كل ليلة يربطون قدمه ربطا مؤلما أملا فى شفائها.

كان ولدا آية فى الذكاء والحنان ولكنه كان ضيق النفس سريع التلهب والغضب.. أبواه يعيشان منفصلين وأمه تشقى من شدة ما أصابها من دهرها.. ومع هذا عندما، مات عنها زوجها اثر موته فيها كثيرا وكتبت إلى أخت زوجها تسألها خصلة من شعره!!

وتسألها عن تفاصيل مرضه وموته.

يقول اندريه موروا إن بيرون الصغير لم ينس أباه فقد كان يحبه وكان معجبا، به.. وعاش مع أمه وهى امرأة تعسة يفيض طبعها الحاد بوابل من القبل ثم بطوفان من اللطمات فكان بيرون يخشاها وكان فى الوقت نفسه يرثى لها. وكان إذا ذهب إلى حديقة معلمه جون استيوارت استاذ اليونانية يقطف الفاكهة، ويسأل: هل يستطيع أن يحمل بعض التفاح «لأميمتى العزيزة المسكينة».

كانت أمه لا تحدثه عن سلالة بيرون بل عن سلالتها هى فأسرتها من الأسر العريقة ضمت محاربين عظاما وبحريين عظاما كان بيرون يرى فى هذا تعويضا يحمله فوق رفاقه من الصبيان

ذوى السيقان القوية السليمة وذوى الآباء العقلاء الوارعين الذين يحسدهم. كان الطفل بيرون شغوفا بالقراءة.. يقرأ وهو يأكل ويقرأ إذا ذهب إلى فراشه وكان يحب التاريخ فتعلق بالشرق ورسم له لوحات تاريخية فقد كان واسع الخيال ويستمع إليه رفاقه بارتياح حتى إذا دهمتهم العاصفة فى الشتاء ولجأوا إلى مخبأ يعصمهم روى لهم بيرون ما قرأه فى ألف ليلة وليلة فينسى أصحابه البرد.

كان منذ طفولته مشبوب العاطفة. أخذته أمه إلى موطنها فأحب تلك الجبال الإسكتلندية، التائهة فى ضباب أزرق المتوج بالثلج الناصع وطاب له الضلال بين الصخور الغريبة الشكل وزاده تعلقا بما حوله بنت صاحب المزرعة «مارى».

لقد اكتشف منذ التاسعة أن فى الإمكان الشعور بهناء لا حد له بمحضر إنسان حبيب.

ولما عاد إلى بلدته أحب «مارى» أخرى لوزية العينين ولم يتصور جمالا يفوق جمالها يتنزه معها ويجلس إليها ويربت عليها برقة.. وعرف الأرق والسهر.. فإذا بعد عنها كلف أمه.. بالكتابة الى «مارى دف» وأعطى الحب، الغلام بيرون من القوة ما جعل أمه، راضية أو كارهة، تكتب رسائل غرامه وهى تهز كتفيها، وتصبح بذلك سكرتيرة ولدها!

كان فى العاشرة من عمره حين جاءه نبأ فى المدرسة دعاه أستاذه وقال له إن عم أبيه الكبير العزيز قد مات وأنه أصبح الآن لوردا فى لهجة أشعرته بالمكانة الرفيعة التى بلغها.

ولما نودى عليه فى الصباح التالى، بين صفوف التلاميذ بلقبه الجديد، التفت إليه أقرانه معجبين فانخرط فى البكاء ولم يتكلم.

إنه الآن فى طريقه إلى قصره وممتلكاته.. قصر باذخ تمنى أن يعيش ويحكم فيه.. واصطفت بين يديه الوصيفات وجاءه الخادم الشيخ «جون موري» يطوف به القصر فإذا بالسقوف والحيطان والأرضية مهجورة مهملة منذ سنوات.

وحكى الخادم الشيخ لبيرون أقصد اللورد بيرون قصة الصراصير فى ذلك القصر.. لقد كان عم بيرون يدربها على طاعته ويضربها بعيدان من القش فلما مات غادرت مدينة نيوستيد فى عدد هائل اسودت منها الردهة وكانت الأقدام تدوس منها المئات.

تعلق بيرون بنيوستيد ولكن أمه رفضت العيش فى القصر المهجور واعتبرت إصلاحه يكلفها مبالغ طائلة وسكنت شقة صغيرة فى شارع ضيق مظلم وتبدد حلم بيرون:

ليس هذا فحسب بل إن أمه كانت تتردد كثيرا على لندن وتتركه مع مربيته «مـاى جراى» الشرسة بشهادة الجيران. حتى أن مستر هانسون الذى أصبح وكيلا لبيرون كتب إلى أمه :

[اؤكد لك ياسيدتى أننى ماكنت أتدخل فى شئونك المنزلية لولا ماعرفته عن خادمتك ماى جراى فإن صديقى الصغير على الرغم من استعداده لإخفاء مشاعره لم يجد بدا من أن يشكو لى شراستها وسوء معاملتها له. فهى تضربه ضربا مبرحاً بلا انقطاع].

***

كانت أمه لم تعد تطيق وقد صار ولدها، لوردا أن تراه يعرج، ودلها بعضهم على دجال فى «نوتنجهام» يدعى «لافندر» تعهدت إليه إصلاح قدم بيرون.. وكان رجلا فظا غليظ القلب، أقصى ماعنده من علاج أن يضغط قدم الصغير بقوة فى آلة خشبية.. وكان بيرون يتلقى فى تلك الآونة دروساً فى اللاتينية ويدرس «فرجيل» و«شيشرون» وكان معلمه يأسى له حين يقرأ على محياه الصغير آيات التعذيب التى تسببها آلات لافندر... ويندر أن يتحمل غلام فى العاشرة ماتحمله بيرون دون شكاية...

ليس المعلم وحده بل الجيران أيضا الذين كانوا يرون «بيرون» كمن يقع بين المطرقة والسندان أى خادمته ماى جراى والدجال لافندر الذى كان يتفكه سمجا بإرسال اللورد الصغير لإحضار البيرة له فيرى الناس ممتعضين رؤية سيد «نيوستيد» يجتاز شوارع المدينة وهو يعرج، حاملاً فى حذر قدح البيرة للدجال الأشر... ومع ذلك لم يفارقه البشر.. وكان انتقامه من غريمه أو معذبه، مضحكا... فإن لافندر كان جاهلا ودعيّا... يدعى معرفة اللغات كلها فكان الصبى يكتب على ورقة أحرف الهجاء كيفما اتفق، على شكل جمل وعبارات، يقدمها للدجال مستفهما. فيجيبه: «هذه باللغة الإيطالية».. فينفجر بيرون ضاحكا ظافرا...

تمكن وكيله هانسون من اقناع اللورد «كارليل» من أقارب بيرون بقبول ولاية أمره... وهو رجل رفيع الخلق، شديد الأناقة يكتب الشعر والقصص التمثيلية.

ومن الطريف وصف اندريه موروا لأول لقاء بين «كارليل» ومسز بيرون (لم يكن أصلح منه للوصاية على بيرون، لولا أن أول لقاء بين هذا السيد وبين تلك المرأة الزائطة الشائطة الضائقة- على نمط معلقينا الرياضيين للكرة المصرية بقوله (ساحقة ماحقة)- تلك المرأة مسز بيرون كان كافيا ليزهده فى المهمة.

ويبدو أن كارليل ليس وحده الذى أوجس شرا من مسز بيرون فإن ناظر بيرون فى مدرسته الجديدة ضاق بها ذرعا على الرغم من إعجابه به وتقديره له فقد كان على الرغم من عاهته فى قدمه أقوى التلاميذ الرياضيين بالمدرسة.. يحفظ الشعر ويعرف الشعراء.. وكان رفاقه يحبونه ولو أنهم يتندرون منه ويطلقون عليه «البارون» الانجليزى العجوز الشدة اعتداده بأصله وتحدثه عن محتده.

وجاءت اجازة الصيف فوقع الطفل بيرون فى حب جديد إذ تعلق بإحدى قريباته «مرجريت باركر» وما أطرف وأرق وصفة لها: (اننى لا أكاد أذكر شيئا يقارب أو يدانى هذا الجمال الشفاف، أو تلك الدماثة فى الطبع.. إنها كانت كقطعة خيالية من قوس قزح.. كلها سناء وصفاء).

انتقل بيرون إلى مدرسة جديدة.. مدرسة هارو عرف ناظرها الدكتور دروري بالشهامة والصرامة معا يكرس جزءا كبيرا من وقته للتحدث والتنزه مع تلاميذه.. فقدم هانسون إليه (بيرون) على أنه: ولد أهملت تربيته ولكنه موهوب.

ولم يلبث الدكتور دروري أن حكم على بيرون بقوله: (سرعان ما اكتشفت أنهم عهدوا إلى بحصان جبلى متوحش جامح.. على أن فى عينيه نار الفطنة).

ولكن الدكتور دروري أدرك بسرعة أن هذا الجواد الأصيل لا يقبل لقيادته اللجام، ولكن يرضى بخيط من حرير ففعل وكان رقيقا معه فتعلق بيرون به فكان اول شخص له عليه سلطان.. ووجد بيرون أن ناظره قاس عادل معا.. وكان أحوج ما يكون إلى العدل والإنصاف.

وكان من رفاق بيرون فى المدرسة «روبرت بيل» الذى صار فيما بعد من أكبر ساسة الإنجليز.. حدث مرة أن فرض أحد الطلبة «الكبار» على بيل جزاء، وبدأ يوقع عليه العقاب ضربا.. فلما برح الألم الصغير «بيل» وكان بيرون عاجزا عن ضرب «الكبير» تقدم وعيناه تدمعان

وصوته يرتعش من الجزع والاستنكاف، وسأل، الكبير، «كم ضربة تريد أن تضربه؟» فسأله : (وما شأنك أيها الوغد الصغير؟) فأجاب بيرون: (لأننى، إذا سنحت، أريد أن أتحمل نصف العقاب!).

ومن الطريف أن بيرون على الرغم من عجزه البدنى، برز فى اللعب، وأحب السباحة! ففى الماء يختفى قصوره.

وكان بيرون يحب الوحدة، فيصعد التل فى عناء وهو يطلع، ليجلس على قبر مجهول، تحت شجرة باسقة، يطالع، وينظم.. يظن أن الموتى يرقدون هادئين ولا يحلمون، تحت أوراق الشجر التى يداعبها النسيم..

وفى يوم جاءه نبأ وفاة بنت عمه الجميلة «مرجريت باركر» فى الخامسة عشرة.. تلك التى هام بها يوما.. ولم يجد لها ضريبا.. فكر فى عينيها السوداوين وكيف أغمضت عليهما أهدابها الطويلة، ورقدت فى تابوت ودفن تحت التراب، جسدها الرقيق الشفاف الذى طالما أحب النظر إليه.

كان بيرون يسمى «مرجريت» بجمالها الملون «قوس قزح» ولكنه من جديد أحب «اريان شاورث» وسماها «نجمة الصباح» يبدو أنه كان مشدودا إلى الأفق.

كان بيرون حساسا مفرط الحساسية يرتاع أن يفاجأ الناس بعاهته يرتاع أكثر من شفقتهم عليه لهذه العاهة.. وكم حاول التعويض كان فى مدرسة هارو خطيبا رائعا وممثلا بارعا ومن عجب أنه كان أيضا، سباحها الأول كما كان لاعبا ممتازا فى مسابقة الكريكيت بين مدرسة هارو وكلية ايتون ١٨٠٥ !..

وفى أكتوبر من هذا العام التحق بجامعة كمبريدج وألفى نفسه لأول مرة غنيا إذ سمح له المجلس الحسبى بمرتب خمسمائة جنيه سنويا على حساب دخله فما لبث أن اتخذ له جوادا ووصيفا وكانت له فى كلية الثالوث ترينيتى كولدج شقة صغيرة جميلة فرشها بأثاث فاخر وكان حنينه الخفى كما يقول أندريه موروا فى الجامعة كما كان فى المدرسة، إلى أن يصبح قبلة الأنظار وزعيم رجال.

ولم يلبث بيرون أن أصدر ديوانا سماه (ساعات الفراغ) وقال (لكى يصبح المرء شاعرا، لابد أن يكون عاشقا أو شقيا وقد كنت عاشقا شقيا معا عندما نظمت (ساعات الفراغ).

ولكنه فى قرارة نفسه لم ينس عاهته.

لشد ما اتذكر استاذنا المازنى.. فقد ابتلى بالعاهة نفسها ولم يكن له معها فراهة بيرون أو وسامته أو غناه ومع هذا استعلى عليها بصبر المؤمن وايمان الصابر وسخرية المصرى وبث تعليقاته الساخرة منها فى أدبه نثره وشعره. وطاب للمازنى يوما أو خطر له أن يكتب وصيه وإن كانت نمطا فريدا وغريبا بين الوصايا.. وصيه منظومة ومنها.

ستـرخى على هذه الحيـاة الستـائر ... وتطفـأ أنوار ويقـفـر سـامـر
فـهل راق هذا الخلق قـصـة عيـشـتى ... ومـاذا يبـالـى من طوته المـقـابر
تركت لهـم من قـبل مـوتى وصـيـة ... نظيـر التى أوصت بـهـا لى المقـادر
وهبت لأعـدائى إذا كـان لـى عـدى ... همـومى ومـا منـه أنا الدهر ثائر
وأوصيت للمحبوب بالسهر والضنى ... وبالدمع لا يرقـا ولا هو هـامـر
وبالجـدرى فى وجـهـه ليـزينه ... وبالعـرج المرذول والله قـادر

فهل العرج وصية وهدية؟ ولكنى درست المازنى دراسة واسعة أستطيع معها أن أقول إن هذه الوصية لون من المزاح والتندروالدليل على هذا أنه يقول تعليقا عليها: (خير للناس أن يتقبلوا وصيتى أن يشكروا لى أنى تحريت العدل فى القسمة ولم أحرم أحدا من نصيبه الذى يستحقه، على عكس المألوف فى الوصايا منذ كتبت فى هذه الدنيا ولئن شكروا لأزيدنهم).

وحين ضاق بيرون بعاهته وخجل منها وحاول جاهدا أن يداريها فاذا ذكرها أحد ثار وعنفه ولكن المازنى ببساطة اتخذها مادة للكتابة والسخرية معا.

[لقد ولدت كغيرى من الناس من أبوين تفضلا فدفعا بى إلى هذه الدنيا وألزمانى أن أعيش فيها وأن أدرج الى غاية لا علم لهما ولا، لى، بها وحملانى من أثقال ضعفهما وقوتهما وذكائهما وبلادتهما ومن الحلم والجهل والحكمة والطيش وغير ذلك مما ورثاه واكتسباه مالا أحسن السير معه فى طرائق هذه الأرض ولهذا أصبت بالعرج! وأحسب أن لو كان العبء الذى حملانى ثقله أفدح مما هو لتشرفت بالكساح! فالحمد لله على الظلع].

أعود إلى بيرون. لقد حاول قسيس البلد أن يهون عليه فأخذه بذكره بما خصته به العناية الإلهية من نعم: الأصل الكريم، والعقل الراجح والذكاء اللماح.. والثروة ثم أجل وأجمل من هذا كله: الموهبة.. «كفاية تضعه فوق بقية الناس» فرد عليه بيرون فى حزن: (آه ياصديقى العزيز.. إذا كان هذا «مشيرا إلى رأسه» يضعنى فوق بقية الخلق، فإن هذه (مشيرا إلى قدمه العرجاء) تضعنى دونهم جميعا).

وسارت الأيام وتنقل بيرون فى الهوى علاجا للسأم وموضوعا للشعر والقصيد فالفنان من وجهة نظر المؤلف اندريه موروا بحاجة إلى حياة منظمة، لأنه يحب عمله.. وإلى حياة مهووسة نوعا ما لأنها تنعش فكره، وتثير خياله.

وجمع بيرون أشعاره فى ديوان صغير ولما خرجت من المطبعة النسختان الأوليان أهدى أحداهما إلى بيجوت والأخرى إلى القسيس صديقه وجاء الأثر غير ما توقعه فإن القسيس صدم بقصيدة عنوانها:

(إلى مارى، ورأى استحالة السماح لبيرون بنشرها فى ديوانه فوعد بإعدام الكتاب كله!! وقد فعل!!).

ثم أعيد طبع الديوان فى يناير سنة ١٨٠٧ خاليا من القصيدة إياها وانتشر وتحدث عنه أهل الطبقة الراقية.. ورأى بيرون اسمه فى جميع واجهات المكتبات.

يقول اندريه موروا (تذوق بيرون حلاوة النفحات الأولى من المجد.. فليس فى الدنيا ألذ وأمتع من أن يكون المرء مؤلفا).

ولكن حتى هذه النعمة السابغة.. حتى هذا الأوج الرفيع الذى بلغ ذراه لم ينسه طفولته القاسية المعذبة فكان دائم الشفقة على الفقراء والباتسين دائم البر بهم يعطى كثيرا حتى يصبح خالى الوفاض فيستدين.. وقد بلغت ديونه رقما مخيفا كتب إلى هانسون وكيله يسأله (هل لى أن أبيع رتبتى؟ ماذا تساوى «اللوردية»؟ خمسة عشر جنيها؟ إنها إذن تكون شيئا مذكورا لرجل مثلى لا يملك هذا العدد قروشا!!

نفدت نسخ ديوانه وأعد منه طبعة أخرى ولكن النقد الأدبى قسا عليه قسوة بالغة حتى فكر فى الانتحار!! وغضب من أجله الشاعر الكبير ورد سورث الذى دخل عند شارلزلام وفى يده

مجلة ادنبره التى نقدته ويقول: (إننى لم أعد أطيق هؤلاء الناس فهذا فتى بالورد، ينشر ديوانا صغيرا من الشعر.. فإذا بهم يتهجمون عليه، كما لو كان الشعر وقفا على سكان الأهراء فى الخلاء! إنى أرى فى هذا الفتى إذا مضى فى طريقه، شاعرا نابها) وتحققت نبوءته.. أقصد رؤيته.

ومن الطريف أن بيرون أخذ ينظم قصيدة هجاء فى أعدائه ثم أدرك أن خير رد أن ينظم قصيدة عصماء.

وفى يوليه ١٨٠٨ نال من جامعة كمبردج الماجستير ونال صداقات فكرية لها وزنها.

«من طرائف بيرون أو مؤشرات شخصيته، الحنان البالغ على الضعف، والرقة للضعيف.

أصيب كلبه «بوتسوين» بالكَلَب فتولى علاجه بنفسه كما لو كان صديقا.. يمسح الزبد المسموم بيده المجردة عن هذا الفم الذى شوهه الداء.. وظل الكلب وفيا حتى موته، فلم يعض أحدا، ولما مات قال بيرون: (الآن لم يبق لى إلا العجوز مورى) وبنى له قبرا، حفر على لوحه:

(هنا رفات كائن أوتى الجمال بلا غرور، والقوة بلا غطرسة، والبسالة بلا عتو.. وأوتى كل فضائل الإنسان دون رذائله.. وهذا الثناء الذى لو لوحظ على قبر آدمى لما كان إلا ملقا سخيفا، ليس إلا شهادة حق وصدق فى «بوتسوين»، الكلب الذى ولد فى تيرنيف، مايو سنة ١٨٠٣.. ومات فى نيوستيد أبى فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٠٨).

ومن الطرائف أنه فى ٢٢ يناير سنة ١٨٠٩ احتفل ببلوغ لورد بيرون رشده فذبح ثور وقدم مشويا لحاشية القصر.. وفى الوقت نفسه تعشى بيرون فى لندن ببيضة واحدة وشريحة من البيكون!

رقص هانسون وكيل أعمال بيرون فى حفلة بلوغه سن الرشد فكان نصيبه من مسز بيرون خطاب تقريع واستنكار لكل تلك النفقات الباهظة ويبدو أنها فى هذه المرة كانت على حق فقد كان بيرون غريقا فى الديون حتى نصحه هانسون ببيع ضيعته فى نيوستيد ولكنه رفض قائلا (ليحدث ما يحدث وستبقى نيوستيد ونصمد معا أو نسقط معا.. الآن وقد عشت فى هذه الضيعة، فقد تعلق بها قلبى وما من قوة حاضرة أو مستقبله ترغمنى على التخلى عنها.. ولو لقيت الجوع والمسغبة.. وقد ينظر مستر هانسون إلى هذا الموضوع كرجل أعمال.. أما أنا فأحس عند ذكر ستيد بكرامتى ماثلة فيها لا صقة بها.. لن أبيع نيوستيد).

وهنا رأت أمه طريقة الخلاص وهى الزواج من فتاة وارثة.. فيعلق بيرون (أظن الأمر سينتهى بزواجى من عروس ذهبية أو بإطلاق الرصاص على يافوخى.. وكلاهما سيان عندى لأن الدواء يكاد يكون فيهما سواء).

وفى شهر يونيو من سنة ١٨٠٩ قرر بيرون أن يسافر مصطحبا صديقه «هوبهاوس» إلى جبل طارق ومنه إلى مالطه والشرق.

أبحر الصديقان الى لشبونة وأخذ هوبهاوس معه مائة قلم وجالونين من الحبر وأكواما من الورق الأبيض ليدون ملاحظاته فى الآثار القديمة.. هكذا يقول اندريه موروا.. وأحاط بيرون نفسه بموكب من الخدم والحشم العجوز موري يصحبه حتى جبل طارق لأن هواء البحر ينفعه، والخادم الأول هو «فلتشر» وصيف نيوستيد، يشكو ويتألم لفراق زوجته التى تزوج منها حديثا ثم خادم صغير يدعى.. بوب، ثم وصيف ألمانى آخر أوصى به الدكتور بتلر ناظر مدرسة هارو!!!

وكتب بيرون: (لقد طاب للعناية الإلهية أن تتدخل لمصلحة الجمهور المسكين فتصيب هوبهاوس برضوض فى يده لا يستطيع معها الكتابة وبذلك توقفت أمطار الحبر من الانهمار.. أما أنا فأغادر انجلترا بلا أسف وسأعود إليها بلا شغف.. ما اشبهنى بآدم حين حكم عليه بالإبعاد لولا أنى ليس لى حواء ولم آكل قط تفاحة إلا كانت حامضة).

سجل بيرون مشاعره فى يوميات بلا غطاء ولا رياء.. يوميات هى حوار طويل بين بيرون وبيرون.. ومن الطريف أنه فى المساء عندما يطوى يومياته، يكتب إلى بيرون أى نفسه «الآن أتثاءب.. إذن مساء الخير يابيرون.

وفى مطلع عام ١٨١٥ تزوج بيرون.. ومن العجيب أن هذا الإنسان الشاعر الحساس كان فظا مع زوجته حتى قالت (لو أنه أحس بجدارتى به: لكان معى طيبا.. إنه يعاملنى كما لو كنت أنا ضميره).

ومن غرائب بيرون أنه كلما زادت ثروته أمسك يده. يراجع نفقات البيت ويحاسب بدقة وصيفه فلتشر فى حين ينفق على غرامياته بغير حساب ولا يساوم مع الأحباب.

أحب السنيورة ماريانا سيجاتى.. وكانت جشعة تبيع الجواهر التى يهديها إليها فيشتريها لها مرة أخرى!).

وفى لحظة نوم عرف قيمة زوجته. عرف فيها وفاءها وصفاتها العظيمة وما انطبع عليه فؤادها من الرحمة الحقة والعفة المثلى فلماذا لا تغفر، له؟ إن قلبه فى وحدته، قد، حن إليها.. إنه فى أشد الشوق أن يسترد آنابلا ويسترد بها أيضا مكانته بين الناس وقد أفضى بهذه الأمنية فى أحاديثه إلى سيدة تدعى ليدى بلسنجتون كانت مارة بجنوه فى ١٨٢٣ وكتبت عنه كتابا من أجمل وأصدق الكتب التى وضعت عن بيرون.

إن نغمة أو زهرة أو نفحة عطر، أو صفحة كتاب «تنادى الماضى كتب بيرون فى اعترافاته التى نقلت عنها ليدى بلسنجتون».

ما من سعادة حقه فى غير الزواج.. فإذا أحب الناس بعضهم بعضا إلى حد لا يستطيعون معه العيش مشطورين متفرقين.. كان الزواج لهم هو العروة الوحيدة الوثقى التى تكفل الهناء..)

علمه دهره ما لم يكن يعلم ولقى من الحياة ويلا.. فبعد أن كان الزواج عنده (يخرج من الحب فاسدا، كما يخرج الخل من النبيذ، صار الزواج هو النبيذ المعتق.. وهو الرحيق المختوم).

نضج بيرون وصار نافذ النظرة

عندما اشتعلت الحرب الروسية التركية أسف على رخص الحياة البشرية عند أولئك القواد الذين يقتلون ويقيمون «المجازر بالجملة» وسخر من المجد الحربى ومن أولئك العدائين فى سبيل الرتب والأوسمة، الذين يضيعون الحياة من أجل شريط أو نجمة أو إشارة إلى أسمائهم فى برقية.. وقال:

إن الرجل الذى يكفكف دمعة واحدة، يستحق من المجد الشريف أكثر من ذلك الذى يريق من الدماء بحارا!.

ومع هذا شارك فى حرب اليونان ضد تركيا وحين تطلبت الحملة لمساعدة اليونان أربعة آلاف جنيه انجليزى، تحملها راضيا بل وجد مسرة فى أن يتعهد هو المدنى البسيط، أسطولا وجيشا.. وقارن، بين ما دفعه هو مليونان، وما بدأ به بونابرت حملته الايطالية فكان ما بذله أكثر سخاء.

وبفضل عون بيرون المالى، تجهز الاسطول اليونانى وناشده قواده أن يلحق بهم (فإن أوامره ستكون منزلة والشعب يملأ الطرقات، سائلا عن لورد بيرون).

ومع هذا اشتد الخلاف بين بيرون والكولونل ستانهوب فقال بيرون (من الغريب أن الجندى ستانهوب يرى محاربة الترك بسنان القلم، وأنا، الكاتب، بحد السيف).

ومع هذا لحقته ولاحقته الإشاعات وقيل عنه إن بيرون ليس انجليزيا وانما هو تركى متنكر باسم زائف.

ومرض بيرون ونصحه طبيبه بالفصد فقال بيرون. «أو ليس لديك دواء آخر، غير الفصد، إن الرجال الذين يموتون من طرف المبضع، أكثر من الذين يموتون بأسنة الحراب».

ورد طبيبه بأن الفصد إنما يكون خطرا على الأمراض العصبية فقال بيرون «ومن العصبى إن لم يكن أنا؟ إن أخذكم الدم من مريض عصبى بمثابة إرخاء أوتار آلة موسيقية».

ومرة أخرى تحدث إلى خاصته برغبته الحميمة فى العودة إلى زوجته.

إنى مقتنع بهناء الحياة البيتية، وليس على ظهر الأرض رجل يحترم المرأة العفيفة أكثر منى، ورجائى الاعتكاف فى انجلترا مع زوجتى وابنتى آدا. . إن الاعتكاف معهما يمنحنى من الهناء فكرة لا عهد لى بها من قبل.. إن الاعتكاف سيكون خيرا عظيما لى.. أنا الذى كنت كالموج فى العواصف الهوج.

واشتدت عليه الحمى وصار يهذى فهدده طبيبه بأنه سيصاب باحتقان فى المخ إذ لم يدعه يفصده. فمد ذراعه وقال «هيا أرى أنكم عصبة جزارين.. خذوا من دمى ما شئتم ولنتته».

وانتهى بيرون

مات بيرون

يقول اندريه موروا (لا نبالغ اذا قلنا إنه لولا معونة بيرون لقضية اليونان، باسمه ثم بموته، لما تحرك الرأى العام البريطانى، وحمل حكومته على تأييدها.. واليوم صارت «ميسولونغى» بلدة صغيرة مزدهرة أقام فيها اليونانيون، «فردوس الأبطال» وحفروا اسم بيرون على نصب فيه.. ومازال الصيادون، سكان هذه المملكة الغريبة، مملكة الماء والملح والحمأ المسنون يعرفون اسم بيرون وإن لم يعرفوا أنه شاعر.. فإذا ما سئلوا عنه، أجابوا:

- رجل شجاع جاء ليموت فى سبيل بلادنا لأنه كان يحب الحرية.

أقول قصة حياة تستحق التسجيل

كان بيرون بموهبته شاعرا.. وكان بيرون بحياته ملحمة

أيهما أبقى؟ صعب، الجواب

الاثنان معا: بيرون

الشاعر الإنسان.